الجزائريون والرحلة إلي الحجاز خلال عهد الاستعمار الفرنسي

د. عبد القادر صحراوي

جامعة جيلالي اليابس

تشكل الهجرة ظاهرة بشرية دائمة في حياة الشعوب والأمم الحرة والمستعمرة، وتختلف دوافعها العامة باختلاف المكان والزمان الذي تحدث فيه. وعرفت الأمة الجزائرية مثلها مثل بقية الأمم العديد من الهجرات الخارجية، لعل الهجرة نحو المشرق العربي والحجاز أثناء عهد الإستعمار الفرنسي من أهمها وأخطرها على السواء. وقد سعت سلطات الإحتلال الفرنسي إلى منع هذه الهجرة بشتى الطرق واضعة الحواجز والعراقيل أمام المهاجرين الجزائريين، من أجل تحقيق هدف إستعماري هو فصل الجزائر عن الشرق والسعي إلى إلحاقها بالغرب حسب الإدعاءات الفرنسية.

ولهذا الغرض أغلقت سلطات الاستعمار الحدود الجزائرية نحو المشرق العربي، ومنعت الحج إلا في بعض الحالات الاستثنائية، كما راقبت رجال التصوف والطرق الذين كانوا على إتصال بإخوانهم في الشرق، وفي نفس الوقت سعت إلى منع إنتشار أفكار الجامعة الإسلامية لجمال الدين الأفغاني. وتمثل الفترة الممتدة من نهاية ثورة المقراني في 1871 إلى بداية القرن العشرين فترة عصيبة في تاريخ الجزائر، وقف خلالها المستعمرون الفرنسيون في وجه هجرة الجزائريين إلى المشرق والحجاز. غير أننا نشير إلى أن الحدود التي وضعها الفرنسيون لم تتمكن من منع الجزائريين من الهجرة إلى مختلف المناطق العربية كالحجاز مثلا، ولا من تعلمهم في الجمعات العربية والإسلامية، ولا حتى من التأثر بالأفكار النهضوية الداعية إلى التحرر من الاستعمار والإستغلال. ومع ذلك يحق لنا أن نتساءل عن

الدوافع العامة للهجرة الجزائرية إلى المشرق عموما والحجاز خصوصا، وعن ردود الفعل الفرنسية اتجاه ذلك؟

1- الدوافع العامة لهجرة الجزائريين نحو المشرق أثناء الإحتلال الفرنسي:

شهدت الجزائر غداة الاحتلال موجات هجرة كثيرة اتجاه المغرب وتونس، إنطلاقا من مدينة الجزائر قبل أن تمتد إلى المدن الجزائرية الأخرى. وشملت في البداية الأعيان والعلماء ثم توسعت إلى المناطق الريفية نتيجة للضغوط الإستعمارية. ويمكننا ذكر العديد من دوافع هجرة الجزائريين التي من بينها الهروب من الحكم الإستعماري النصراني الذي حال دون ممارسة طقوس وشعائر الإسلام. ونشير إلى أن عملية الاستيلاء على أرض الجزائريين قد اضطرتهم إلى الهجرة، كما أن فشل بعض الانتفاضات الوطنية والتعرض للسجن والاعتقال قد دفع الكثير من الجزائريين إلى ترك وطنهم[1]. ومن ثم يخطئ الذي يعتقد أن سبب الهجرة نفسي فقط، ذلك أن للهجرة أسباب سياسية وإقتصادية[2]. هذا وقد قام الإستعمار نفسه بإجبار الكثير من الأعيان والعلماء مثل المفتي إبن العنابي على الهجرة ، ناهيك عن اختيار بعض الجزائريين الهجرة إلى الشرق أثر نفيهم بادئ الأمر إلى أماكن أخرى مثل عبد العزيز الحداد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض المهاجرين كانوا من أصول مشرقية ففضلوا العودة إلى أوطان أجدادهم للعيش في حرية وأمان. وحث هؤلاء المهاجرون إخوانهم الباقين في الجزائر على الهجرة بعد أن زينوا لهم المناطق والمدن المهاجر إليها مثل أرض الشام والحجاز، وما تمثله من جدب لكل عربي ومسلم. ومما لا شك فيه أن دعوة الجامعة الإسلامية التي نادى بها جمال الدين الأفغاني والتي تبناها السلطان عبد الحميد الثاني، كان لها التأثير البالغ على الجزائريين وخاصة منهم الذين يتبعون الطرق الصوفية الداعية إلى الهجرة إلى أرض

الإسلام[3]. ويمكننا ذكر التواريخ الآتية التي تمثل معالم بارزة للهجرة الجزائرية والتي منها: 1830، 1832، 1854، 1870، 1875، 1896، 1910، 1911، هذا التاريخ الأخير الذي عرف هجرة كبيرة بسبب الضغط المستمر على الجزائريين والسعي إلى تجنيدهم للدفاع عن فرنسا. وإذا كان انطلاق الهجرة في البدايةمن مدينة الجزائر، إلا أنها شملت بعد ذلك مدنا أخرى كالبليدة، المدية وقسنطينة ووهران وتلمسان وغيرها. ومست الهجرة أيضا منطقة القبائل في سنوات 1857 و1871 نتيجة للمقاومة والتمرد ضد الاختلال الفرنسي، ومن أشهر المهاجرين الحاج عمر زعيم زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمان بآيت اسماعيل [4].

وعلى اثر استسلام الأمير عبد القادر، هاجرت عائلات بأكملها من غرب البلاد إلى الشام والحجاز واسطانبول، وتوالت بعد إطلاق سراحه في سنة 1852، ولعل المراسلات المتبادلة هي التي شجعت على ذلك. وعرف شرق البلاد أيضا هجرة كثيفة نحو تونس، ومن ثم إلى الشرق العربي وخاصة بعد ثورة 1871، ونفس الأمر يمكننا ذكره بالنسبة لسكان جنوب البلاد في سنة 1895، وثلاثينات القرن 20م التي عرفت هجرة عائلة الشيخ الطيب العقبي. وكانت السلطات الاستعمارية تتدخل في كل مرة لمنع الحج الذي اتخذه بعض الجزائريين ذريعة للهجرة، وذلك بالنسبة للمتحصلين على جواز سفر فرنسي أو الذين يهاجرون بطرق أخرى [5]. وفي هذا السياق نشير إلى تدخل الحاكم العام للجزائر سنة 1875 لمنع الهجرة، ونفس التوجه دعا إليه قناصلة فرنسا في الشرق باعتبار أن الهجرة تضر بمصالح فرنسا. أما في سنة 1895 فقد منعت الهجرة من طرف الحاكم العام كامبون « Cambon » بعد أن استصدر فتوى من علماء المشرق لا تشجع الجزائريين على الهجرة وتعتبر البلد المحتل أرض إسلام[6]. ثم منع جونار الهجرة وأغلق الحدود في أعقاب الهجرة الكثيفة خلال سنتي 1910 و1911. وفي غياب

وثائق دقيقة لا يمكننا ذكر أعداد المهاجرين إلى المشرق والحجاز، على الرغم من وجود بعض الأرقام المتناثرة هنا وهناك في تقارير القناصل والمصادر الفرنسية. وتعتبر سنة 1847 سنة اختيار الجزائريين الهجرة إلى الشام وبدرجة أقل الحجاز الذي قصده الجزائريون للحج ثم الاستقرار. وشهدت نهاية القرن 19م تذمرا وغضبا شعبيا عارما ضد الإحتلال الأمر الذي دفع الكثير من الجزائريين إلى الهجرة، التي لم تنحصر أسبابها في تأثير الجامعة الإسلامية ودعوة الطريقة الرحمانية.

ومع ذلك منحت سلطات الإحتلال بعض الرخص إلى بعض العائلات الجزائرية للهجرة نحو الشرق كما هو الشأن بالنسبة لمنطقة القبائل، نظرا لصعوبة الحياة وكثرة السكان، ونفس الأمر قامت به في بسكرة وقسنطينة وغيرهما، في الوقت الذي منعت فيه عائلات أخرى من الهجرة في سنة 1847 كمنطقة القبائل دائما[7]. وهناك العديد من القصص التي ترويها الكتب التاريخية مثل قصة 300جزائري الذي طلبوا رخصة التوجه إلى مكة[8]. وفي منطقة سور الغزلان رخص لقبيلة أولاد خالد بالهجرة إلى سورية من أجل الإستيلاء على أراضيها المقدرة بـ2600 هكتار[9]. وتظهر بعض الأرقام فشل السياسة الفرنسية في الجزائر في منع الهجرة نحو الشرق والحجاز، ولعل الهجرة الجماعية لسنوات 1909 و1910 بالنسبة للشرق الجزائري، وهجرة تلمسان في سنة 1911 قد أصابت الفرنسيين بهلع كبير وذلك على الرغم من أن الهجرة الثانية أي من تلمسان كانت سرية وجماعية باتجاه المغرب الأقصى ومن ثم إلى سورية، ونفس الأمر شهدته سنوات 1910-1912 و1913 إنطلاقا من قسنطينة وبلاد القبائل بإتجاه الاسكندرية وبيروت. وتتفاوت أرقام المهاجرين المستقرين في الشرق في ظل غياب إحصائيات فرنسية وعثمانية دقيقة، ورغم ذلك وصل عددهم إلى 4آلاف

بدمشق في سنة 1883، و10 آلاف حسب القنصلية الفرنسية في 1910، في حين ذكر رقم17500 في نفس العهد تقريبا علما بأن الكثير من المهاجرين لا يسجلون أنفسهم بالقنصليات[10]، هذا وشملت الهجرة الجزائرية أرض الحجاز أيضا.

2- الهجرة الجزائرية إلى الحجاز وردود فعل الإستعمار الفرنسي:

لا شك أن أرض الحجاز وما تحتويه من أماكن مقدسة يأتي في مقدمتها المسجد الحرام والكعبة المشرفة بمكة، وكذلك المسجد النبوي وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، تستهوي أفئدة المسلمين عامة والجزائريين خاصة خلال موسم الحج والعمرة. ولذلك نشير أن هجرة الجزائريين إلى الحجاز كانت في الغالب مؤقتة ومرتبطة بما ذكرناه آنفا، وعلى الرغم من أنها أي الهجرة لم تكن نشيطة إتجاه هذه الأرض، إلا أن ذلك لم يمنع الجزائريين من الهجرة إليها ولو بأعداد قليلة، سواء بصورة مباشرة أو عبر الشام. وربما يعود استقرار الجزائريين بأرض الحجاز إلى جدبها وصعوبة الحياة بها، ذلك أنها كانت تستفيد من مداخيل الحج والأوقاف المخصصة لها من طرف بعض الدول الإسلامية كالجزائر مثلا. ولا توجد تقارير مفصلة عن عدد الجزائريين بالحجاز، لكن دخول بعض الفرنسيين البلاد كليون روش "L.Roches" الذي توغل متنكرا في زي إسلامي جعلنا نتعرف على بعض أسماء المقيمين من الجزائريين كمحمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية. وتشير بعض الإحصائيات إلى استقرار حوالي ألف جزائري في أواخر القرن 19م جلهم من مدينة سيدي عقبة بولاية بسكرة، ومما لا شك فيه أن الهجرة إلى الحجاز قد ازدادت بسبب فرض الاستعمار لقانون التجنيد الإجباري والدعاية للجامعة الإسلامية. كما أن اندلاع الحرب العالمية الأولى لم يمنع الجزائريين من الهجرة إلى الحجاز، ضف إلى ذلك انهزام العثمانيين أمام الشريف حسين في 1916 فيما سمي بالثورة العربية. وهنا نلاحظ أن السلطات الإستعمارية

أخذت في إرسال البعثات والوفود بعد أن أدركت عدم خطورة فكرة الجامعة الإسلامية على الجزائريين، ومن ثم أرسل وفد مكث سنتين بالحجاز في 1916 و1917[11].

وضمن نفس السياق، تجدر الإشارة إلى بعض مشاهير المهاجرين إلى الحجاز من العلماء والصوفية والثوار مثل الشيخ السنوسي وقدور بن رويلة كاتب الأمير عبد القادر، والشيخ عزيز الحداد وهو ابن زعيم ثورة 1871، الذي تمكن من الفرار من منفاه بجزيرة كاليدونيا الجديدة قاصدا أرض الحجاز. ونفس الأمر يمكن قوله عن محمد وعلي السحنوني الذي شارك في ثورة 1871 الذي كانت فرنسا قد نفته إلى كايان بغويانا الفرنسية قبل أن توافق على إقامته بمكة والمدينة، وقد اشتهر في هذه الأخيرة "بشيخ العرب" وذلك حتى وفاته ودفنه بالبقيع. وتظهر بعض الجرائد الحجازية كجريدة القبلة وصول أفواج من الجزائريين خلال سنة 1916 فارين من الألمان والأتراك، كما ذكرت مرافقة بعض الضباط الجزائريين للشريف حسين أثناء زيارته لثكنة من الثكنات [12].

وفي 1919 قتل ضابط جزائري يدعى "رحو" كان يقوم بحماية الشريف عبد الله أثناء الحرب بين الوهابيين والحجاز قرب مدينة الطائف، ويعتقد أن هذا الضابط كان في خدمة الأمير عبد الله بن الشريف حسين [13]. وهناك جزائريون مشهورون آخرون هاجروا إلى أرض الحجاز مثل البشير الإبراهيمي، وأحمد رضا حوحو وغيرهما، فمنهم من اختار الإقامة الدائمة ومنهم من فضل العودة لمواجهة الإستعمار الفرنسي [14]. هذا واستمرت الإدارة الاستعمارية في محاولاتها السرية والعلنية لمنع الحج والهجرة إلى الحجاز من خلال تنظيم الرحلات الرسمية إلى الحجاز من أجل طلب الموافقة على فتوى تحقيق الأغراض الفرنسية.

3- رحلة "ليون روش" و"كور تيلمون" إلى الحجاز:

تعتبر رحلة ليون روش في 1841 – 1842 من أهم الرحلات التي قامت بها شخصية فرنسية إستعمارية لتحقيق أهداف السياسة الفرنسية في الجزائر وخارجها، فقد تنكر في زي مسلم يريد أداء شعائر الحج ومقابلة شريف مكة محمد بن عون. إلا أن الهدف الحقيقي لهذه الرحلة يكم ن في السعي إلى طلب موافقة علماء الحرمين على فتوى جاء بها من الجزائر تحث الجزائريين على الرضى بحكم الاستعمار الفرنسي إلى جانب عدم شرعية مقاومة الأمير عبد القادر. هذه الفتوى التي صيغت في الزاوية التجانية في عين ماضي بحضور مقدمي بعض الطرق الصوفية كالطيبة والشيخية، والتي تبيح لمسلمي الجزائر العيش تحت الحكم الفرنسي المسيحي وعدم ضرورة اللجوء إلى الجهاد، ويشترط من أجل ذلك موافقة علماء المسلمين في القيروان والأزهر والحرمين عليها [15]. وقد مر ليون روش أثناء رحلته بالعديد من الدول كتونس ومصر وأرض الحجاز وفيها لقي الدعم المناسب لمهمته بفضل أتباع الطرق الصوفية والقناصل الفرنسيين في تونس والقاهرة وجدة، وعند وصوله إلى الطائف، ذكر أن شريف مكة جمع العلماء من بغداد ودمشق ومكة والمدينة الذين جاءوا لزيارته فطلب رأيهم في الفتوى [16].

ووفر"روش" كل الأسباب لإنجاح مهمته من خلال دعم الحكومة الفرنسية والعلاقات التي كانت تربطه بشيوخ الطرق ومرافقته لبعض أفراد التجانية مثل الميلود بن سالم الأغواطي ويحي البوزيدي وبعض المقربين من شريف مكة دون أن يفصح عنهم. وقد استمع الشريف عون إلى مقدم الطريقة التجانية الذي طلب مساندة الفتوى التي تستهدف وفق مقاومة الأمير عبد القادر ضد الإحتلال الفرنسي، وهذا على الرغم من الإعجاب الذي أبداه الشريف عون بالأمير عبد القادر. وفي نفس الإطار ادعى "روش" أمام شريف مكة بأنه مكلف من

أصدقائه المرابطين في الجزائر بطلب الدعم لصالح الحجاج الجزائريين الذي ذكر أنهم يلاقون سوء المعاملة بأرض الحجاز، وهو مكلف أيضا من طرف "بوجو" باسم فرنسا التي انتصر جيشها بفضل الله، وبين أن هدف الفتوى هو تحقيق السلام والإستقرار في الجزائر التي تشهد حربا لا فائدة منها [17]. وهكذا نلاحظ أن "روش" قد استصدر موافقة علماء الحرمين بحضرة شريف مكة على الفتوى التي صاغها الفرنسيون وقدمها مقدم التجانية، بل وتمكن من النجاة من موت حقيقي بأرض الحجاز بفعل تدخل شريف مكة الذي أشرف على هربه إلى مصر. غير أن استمرار المقاومة بقيادة الأمير عبد القادر لست سنوات أخرى بعد الفتوى، يظهر عزم الجزائريين على مواصلة الحرب ضد فرنسا وفشل السياسة الاستعمارية [18].

هذا وقام "جرفي كورتيلمون" برحلة سرية سنة 1894 إلى مكة للحصول على مصادقة علماء الحرم المكي على فتوى تمنع هجرة الجزائريين باعتبار أن الجزائر دار إسلام وليست دار حرب. وتوصف شخصية كورتيلمون بالمضطربة وهذا ما يظهر من خلال حديثه عن الحج وإدعائه اعتناق الإسلام وحب المسلمين، وقد استحدم وسيلة التصوير لأداء مهمته، وهي المهمة التي استهدف من خلالها "جول كامبون"J. Cambon" حاكم الجزائر يومها وقف الهجرة الجزائرية ومحاربة نفوذ الجامعة الإسلامية[19]. ولتبيان خطورة هذه الفتوى على الجزائريين وأهميتها بالنسبة للإستعمار الفرنسي نورد نصها فيما يلي: "ما قولكم في أهل بلدة مسلمين قد استولى عليهم الكافر وصار حاكما عليهم، ولم يتعرض لهم في أمور دينهم، بل يحثهم على إجراء أحكامهم الدينية، ووظف عليهم قاضيا من أهل دينهم تجري عليهم الأحكام وجعل له معاشا وافرا يأخذه على رأس كل شهر، فهل مع هذا يجب عليهم الهجرة أم لا ؟ وهل يجب عليهم مقاومته ومحاربته مع عدم قدرتهم على ذلك أم لا؟ وهل بلدهم التي استولى عليها يقال لها دار حرب أم دار

سلام؟ بينوا لنا بيانا شافيا قاطعا للنزاع، أيد الله بكم الدين[20]. وتظهر هذه الفتوى مهمة "كورتيلمون" بوضوح وتتضمن العديد من المغالطات التاريخية والواقعية التي تشمل إشراف الإدارة الاستعمارية على شؤون الدين الاسلامي من خلال الهيمنة على المساجد والأوقاف والقضاء وتنظيم الحج بتعيين الأئمة لأداء الصلوات وإلقاء الخطب وإقامة لجنة الأهلة لإثبات رؤية الهلال من عدمه، وهذه لعمري أمور تتنافى كليا مع بلد يوصف بأنه دار اسلام وليس دار حرب.

وهكذا ظلت الهجرة إلى المشرق العربي والحجاز ومناطق عربية وإسلامية أخرى المنفذ الرئيس الذي ينفذ منه الجزائريون للعيش في كنف الحرية والروح الإسلامية، ثم القيام بواجب الدعم المادي والمعنوي للمقاومة الوطنية الجزائرية والثورة التحريرية المباركة التي استعادت بفضلها الجزائر استقلالها، وهو الاستقلال الذي سمح بعودة الكثير من المهاجرين إلى وطنهم والاستقرار فيه استقرارا نهائيا.

الهوامش:

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الخامس 1830-1954، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص. 472 – 473.

2- نفسه، ص..473

3- نفسه، ص. 474.

4- نفسه، ص. 474 – 475.

5- نفسه، ص. 476.

6- Dépont (0), Coppolani (X), Les confréries religieuses musulmanes, Alger, Ed .Adolphe Jourdan, 1897, p.37.

7- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص477-479.

8- Colonel Robin, Notes historiques sur la grande Kabylie de 1838 à 1851, R.Af, 1904, p.130.

9-Bourjade (G), Notes chronologiques pour la région D'Aumale, R.A.f, 1889, p. 291.

10- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.480-482.

11- نفسه، ص.482-483.

12- Bouvat (L), La presse musulmane, « Al-Kibla », journal arabe de la mecque, R.M.M., T. 34, 1917-1918, pp.320-328.

13- Massignon (L), Les vraies origines dogmatiques du Wahabisme, Liste des œuvres de son fondateur, R.M.M, T.36, 1919, p.320, note n°01.

14- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص..486

15- أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2003، ص.322-325.

16- نفسه، ص342..

17– Roches (L), Dix ans à travers l'Islam, 1834 – 1844, Paris, Librairie academique Didier, sans date, pp.319 – 322.

18- أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ ...، المرجع السابق، ص.344 – 345.

19- نفسه، ص.346-347.

20- Dépont (O), Coppolani (X), op.cit, p.34.